الوزير ابن كلّس

واضع الحجر الأول فى صرح الجامعة الأزهرية

للأستاذ محمد عبد الله عنان

سألنى سائل كيف نشأت صفة الأزهر الجامعية ، ومن صاحب الفضل الأول فى اسباغها عليه ؟ فرأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأعرض فى هذا الموضوع شيئاً من الشرح والتفصيل

ويجب أولا أن نتفى فكرة ذائعة ، هى أن الجامع الأزهر أنشىء ليكون جامعة أو معهداً للدرس ، فليس ثمة فى ظروف انشائه ما يدل على أنه أنشىء لمثل هذه الغاية ، وإنما أنشىء الجامع الأزهر ليكون مسجداً رسمياً للدولة الفاطمية فى حاضرتها الجديدة ، ومنبراً لدعوتها ، ورمزا لسيادتها الروحية . أما فكرة الدراسة بالأزهر فقد كانت حدثاً عارضاً ترتب على فكرة الدعوة المذهبية الجديدة ؛ ففى صفر سنة ٣٦٥ هـ ، فى أواخر عهد المعز لدين الله منشىء الأزهر ، ولنحو أربعة أعوام من انشائه ، جلس كبير القضاة على بن النعمان القيروانى بالجامع الأزهر وقرأ مختصر أبيه فى فقه الشيعة فى جمع حافل من العلماء والكبراء ، فكانت هذه أول حلقة للدرس عقدت بالجامع الأزهر ؛ ثم توالت حلقات بنى النعمان بالأزهر بعد ذلك ؛ وكان بنو النعمان من أكابر علماء المغرب الذين اصطفتهم الخلافة الفاطمية وجلبتهم دعاتها وألسنتها الروحية ، فلحقوا بها إلى مصر ، واستأثروا فى ظلها برياسة القضاء زهاء نصف قرن ؛ وكانت الخلافة الفاطمية تعتمد فى توطيد سلطانها بمصر على عصبيتها المغربية ، ثم على صحبها وخاصتها من الموالى الأجانب وجلهم من الصقالبة ؛ وكانت حلقات أولئك العلماء المغاربة بالأزهر حلقات دعاية روحية وسياسية ، تعقد فى الغالب للأكابر والخاصة ، ولم تكن لها فى البداية صفة الدرس العام

كانت هذه بداية جامعية فى معنى من المعانى ، بيد أنها لم تكن عامة ولا مستقرة ؛ ولكن حدث فى عهد العزيز بالله حدث جامعى آخر ؛ ففى رمضان سنة ٣٦٨ هـ جلس يعقوب بن كلّس وزير المعز لدين الله ، ثم وزير ولده العزيز من بعده بالجامع الأزهر ، وقرأ على الناس كتاباً ألفه فى الفقه الشيعى ؛ وكان ابن كلس كما سنرى شخصية ممتازة ، تجمع بين السياسة والعلم ، وكان نصيراً كبيرا للعلماء والأدباء ؛ وكان يعقد مجالسه الفقهية والأدبية تارة بالأزهر وتارة بداره فيهرع اليها العلماء والطلاب من كل صوب ، وكانت فى الواقع أول مجالس جامعية حقة عقدت بالجامع الأزهر

والظاهر أن ابن كلس كان أول من فكر فى جعل الجامع الأزهر معهداً للدراسة المنظمة المستقرة ؛ وعلى أى حال فهو أول من فكر فى تنفيذ هذا المشروع الجامعى ؛ ففى سنة ٣٧٨ هـ استأذن ابن كلس العزيز بالله فى أن يعين بالازهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يحضرون مجلسه ويلازمونه ، ويعقدون مجالسهم بالأزهر فى كل جمعة من بعد الصلاة حتى العصر ؛ وكان عددهم خمسة وثلاثين ؛ وقد رتب لهم العزيز أرزاقا وجرايات شهرية وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر ، وخلع عليهم فى يوم الفطر ، وأجرى عليهم ابن كلس أيضاً رزقا من ماله الخاص

وهنا نجد أنفسنا أمام حدث جامع حقيق ، فقد كان أولئك الفقهاء الذين رتبهم ابن كلس للقراءة والدرس بالأزهر ، وأقرهم العزيز بالله ، أول الأساتذة الرسميين الذين عينوا بالجامع الأزهر ، وأجرت عليهم الدولة أرزاقا ثابتة وباشروا مهمتهم العلمية تحت رعاية الدولة بطريقة منظمة مستقرة ؛ وإذن فهنا نستطيع أن نقول إن الأزهر يكتسب لأول مرة صفته الجامعية الحقيقية كمعهد للدراسة المنظمة ، وأنه يبدأ هنا حياته الجامعية الحافلة المديدة

— ٢ —

وإذا ما تقررت هذه الحقيقة ، فانا نستطيع أيضاً أن نقول إن أكبر الفضل فى تتويج الجامع الأزهر بهذه الصفة الجامعية الجليلة يعود إلى الوزير ابن كلس الذى أسبغ عليه لأول مرة صفة المعاهد الدراسية العامة ، ورتب له أول فريق من الأساتذة الرسميين .

ولقد كان ابن كلس وزيراً عظيما وعالماً جليلا ؛ بل كان عبقرية سياسية حقيقية ؛ وهو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ؛ واسمه يدل على أصله الذمى ؛ أجل ، فقد كان ابن كلس يهوديا ، نشأ ببغداد ، وغادرها فى شبابه إلى الشام واشتغل هنالك حينا

بالتجارة ، وأثقلته ديون عجز عن أدائها ففر إلى مصر فى عهد كافور الأخشيدى ؛ واتصل به وقام له ببعض الأعمال والمهام المالية فأبدى فى أدائها خبرة وبراعة ، وطاف بريف مصر يحصل الأموال ويعقد الصفقات ، حتى تمكنت منزلته لدى كافور ، وأثرى وكثرت أمواله وأملاكه ؛ ثم نابت له فكرة فى الأخذ بنصيب من السلطة والولاية ، ورأى الإسلام خير طريق لتحقيق هذه الغاية ، وكان قد بلغه أن كافورا قال فى حقه لو كان هذا مسلماً لصلح أن يكون وزيراً ، فدرس قواعد الاسلام وشرائعه سراً ، وفى شعبان سنة ٣٥٦ هـ ، دخل جامع مصر (جامع عمرو) وصلى به الصبح فى موكب حافل ؛ ثم ركب فى موكبه إلى كافور ، فخلع عليه ، واشتهر أمره ، وعلت منزله ، وقوى نفوذه ؛ فتوجس وزير مصر جعفر بن الفرات من تقدمه وتمكن نفوذه شراً ، وأخذ يدس له الدسائس ، ويوغر عليه الصدور ؛ فخشى ابن كلس العاقبة ، وفر إلى المغرب فى شوال سنة ٣٥٧ هـ ، ولحق بالمعز لدين الله الخليفة الفاطمى ، وهو يومئذ ينظم مشروعه لغزو مصر ، فقدر المعز مواهبه وكفاياته ، ووقف منه على أحوال مصر ومواطن القوة والضعف فيها ؛ ولبث ابن كلس فى خدمته حتى تم فتح مصر على يد جوهر الصقلى . ولما قدم المعز إلى مصر بأهله وأمواله وجيوشه فى رمضان سنة ٣٦٢ هـ ، قدم معه ابن كلس ، وقلده المعز شؤون الخراج والأموال والجبية والأحباس وسائر الشؤون المالية الأخرى ، فأبدى فى إدارتها وتنظيمها براعة وزاد الدخل زيادة واضحة ، ثم عهد اليه المعز بشؤون الخاص ؛ ولما توفى المعز بعد ذلك بقليل فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ فوض العزيز بالله ولد المعز وخليفته إلى ابن كلس النظر فى سائر أموره ثم لقبه بالوزير الأجل ؛ ووقعت فى حقه وشايات من بعض خصومه فاعتقله العزيز بالقصر بضعة أشهر ، ثم أطلقه ورده إلى مناصبه ؛ وتضاعفت منزلته لدى العزيز وغدا أقوى رجل فى الدولة ؛ وبذل ابن كلس جهوداً عظيمة فى تنظيم الادارة والدواوين ، وكان من أكبر بناة الدولة الفاطمية بمصر وموطدى دعائمها ونفوذها .

وليس غريباً أن يحرز رجل مثل ابن كلس تلك المكانة الرفيعة فى ظل الدولة الفاطمية مع أنه يهودى الأصل والنشأة ؛ فقد كانت الخلافة الفاطمية تصطنع الذميين والصقالبة ، وتو ثقتها ؛ وقد ولى وزارتها فيما بعد ، فى عصر الحاكم بأمر الـ وزراء يهود ونصارى خلص مثل ابن رسوين ، وابن فهد ، وعي ابن نسطورس ، وابن عبدون ؛ وتولى بعد هؤلاء كثيرون فى عـ مخلفة ؛ ونستطيع أن نفهم سر ما كانت توليه الخلافة الفاط لوزرائها الذميين من العطف والثقة إذا ذكرنا أنها تتهم من بـ خصومها بالانتماء إلى أصل يهودى ، وأنها كانت تتهم فى عقائ

ولم يكن ابن كلس وزيراً وسياسياً عظيما فقط ، بل كان وأديباً كبيراً أيضاً ، وكان يعقد بداره مجالس علمية وأد دورية ينتظم فى سلكها أكابر الفقهاء والأدباء والشعراء ؛ وكـ يشرف بنفسه على هذه المجالس ، ويشترك فى أعمالها ، ويغد العطاء على روادها . وقد أخذ ابن كلس بقسط حسن فى التأل والكتابة ، فوضع كتابا فى القراءات ، وكتابا فى الفقه ، وك فى آداب رسول الله ، وكتابا فى علم الأبدان والصحة ، ومختص فى فقه الشيعة مما سمعه من المعز لدين الله ، وهو المعروف بالرسـ الوزيرية . وكان يقرأ كتبه على الناس تارة بالجامع الأزهر وتا بداره ، ويجتمع لديه الكتاب والنحاة والشعراء فيناظر ويصلهم ؛ وكانت موائده دائماً منصوبة معدة للوافدين ؛ وك كثير الصلات والاحسان ، وبالجملة فقد كان هذا الوزير والـ الأديب مفخرة فى جبين عصره ، وقد أشاد شعراء العصر بخلا وجوده ، ومن ذلك ما قاله أحدهم حين أصابت الوزير علة فى يده

يد الوزير هى الدنيا فان ألمت ... رأيت فى كل شىء ذلك الألم
تأمل الملك وانظر فرط علته ... من أجله واسأل القرطاس والقلما

ومرض ابن كلس فى شوال سنة ٣٨٠ هـ ، فجزع عليه العزيز أيما جزع ، ولبث يعوده ويرعاه ، حتى توفى فى الخامس من ذى الحجة ؛ فحزن عليه حزناً شديدا ، وأمر بتجهيزه تجهيز الأمراء والملوك ، وخرج من القصر إلى داره فى موكب صامت محزن ، وشهد تجهيزه وصلى عليه بنفسه ، ووقف حتى تم دفنه وهو يبكى بدمع غزير ، واحتجب فى داره ثلاثاً لا يأكل على مائدته والحزن يشمل الخاص والقصر كله ؛ وأفاض الشعراء فى رثاء الوزير الراحل ومدحه ، فوصلهم العزيز جميعاً ؛ وعلى الجملة فقد سما ابن كلس فى ظل الدولة الفاطمية الى أرفع مكانة ، وترك

بوفاته فيها أعظم فراغ ، وكان له أعظم الأثر في توطيد حكمها وإدارتها بمصر

— ٣ —

هكذا كانت حياة ذلك الوزير الخطير الذي يدين إليه الأزهر بأول خطوة عملية حقيقية في سبيل الحياة الجامعية ؛ ومن المحقق أن تلك الخطوة الأولى في ترتيب الأساتذة والدروس بالأزهر بطريقة منظمة مستقرة ، كان لها أثر كبير في تطور الغاية التي علقتها الخلافة الفاطمية بادىء ذي بدء على إنشاء الجامع الأزهر ؛ فقد كانت هذه الغاية كما رأينا أن يكون المسجد الجامع الجديد رمز الخلافة الجديدة ومنبرا لدعوتها ؛ ولكن يلوح لنا أن الخلافة الفاطمية لم تكن ترمي في المبدأ إلى توجيه الأزهر إلى تلك الناحية الجامعية ؛ ذلك لأن الجامعة الفاطمية الحقيقية أقيمت بعد ذلك في عصر الحاكم بأمر الله باسم دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة في سنة ٣٩٥ هـ (سنة ١٠٠٥ م) ؛ ولكن الأزهر كان يومئذ بفعل الظروف والتطورات التي أشرنا إليها قد بدأ حياته الجامعية ؛ ومع أن دار الحكمة لبثت مدى حين تنافس الأزهر وتستأثر دونه بالدراسة المتصلة المنظمة ، فانها لم تلبث لصرامة نظمها وإغراق برامجها في الشؤون المذهبية ، أن اضطربت أحوالها وضعف نفوذها العلمي ؛ هذا بينما كان الأزهر يسير في سبيل حياته الجامعية الوليدة بخطى بطيئة ولكن محققة ، ويسير في نفس الوقت إلى التحرر من أغلال تلك الصبغة المذهبية العميقة التي كادت في البداية أن تقضي على مصايره الجامعية الصحيحة

ونحن نعرف أن هناك مشروعاً للاحتفال بالعيد الألفي للأزهر — وهو عيد يقع بعد نحو أربعة أعوام — ونعرف أن من مظاهر ذلك الاحتفاء بتلك الذكرى الجليلة أن يكتب تاريخ حافل للجامع الأزهر منذ إنشائه إلى يومنا ؛ فمن حق الوزير العالم ابن كلس أن يتبوأ في ذلك التاريخ مقاماً يجدر بفضله في وضع الحجر الأول في صرح تلك الجامعة الكبرى [1]

محمد عبد الله عنان

(١) راجع في هذا البحث وما يتعلق به : خطط المقريزي (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤٩، ١٥٦ و ١٥٧ و ج ٣ ص ٧ — ١٠ ؛ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٤١ ؛ والاشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي ص ٢٣

الفلم المصري

بمناسبة فلم دموع الحب

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

لا يسع المصري إلا أن يغتبط أعظم الاغتباط عندما يرى تلك الأفلام المصرية الجديدة التي أقدم أبناء مصر على إخراجها بين حين وحين ؛ ولا شك في أنها فتح جديد يجب أن نفخر به ، ونحرص على المزيد منه ؛ وإذا كان الجمهور المصري قد أقبل على رؤيتها ذلك الاقبال الباهر فان في ذلك دليلاً قوياً على مقدار تطلعه إلى أن يرى تلك الصناعة تنمو وتنجح . فالشعب يؤدي واجبه في تشجيع أبنائه من أهل الفن ويجيب مجهود المقدمين منهم إجابة كريمة مستنيرة

والفلم المصري له مكان لا يستطيع فلم آخر أن يحل محله . فانه يشبع من عواطف المصريين مالا يشبعه خير الأفلام العالمية الأخرى ، وذلك أثر من آثار النهضة المباركة التي نحسها في كل ناحية من النواحي . فالشعب المصري يحس بنفسه ويريد أن يرى تلك النفس مصورة أمامه تصويراً فنياً كما يحتاج الانسان إلى أن ينظر في مرآة ليرى صورة وجهه أو هندامه ، وكما يرتاح إلى أن يسمع ترديد آماله ونزعات نفسه ومُثله العليا

فكل فلم من تلك الأفلام حديث نفسي يتحدث به الفنان إلى بني قومه . فهي ليست قطعة من الفن فحسب . بل هي رسالة عاطفية يرسلها الفنان من نفسه إلى نفوس الجماهير المتعطشة إلى الحياة والعلو والقوة ، ولهذا فنحن إذا ذهبنا لاجابة الداعي إلى فلم مصري كانت إجابتنا أولاً قومية وثانياً فنية

ومن هذا الاعتبار لا يسع المصري أن يقارن أو يوازن بين الأفلام المصرية ، وبين ما تخرجه الشركات العالمية من آيات الفن . لأن الأفلام العالمية إنما تؤدي رسالة واحدة وتشبع ناحية واحدة هي رسالة الفن المحض والناحية الأدبية الصرف ، ومهما كانت تلك الناحية الفنية فهي في المحل الثاني من نفوسنا ، ولا يمكن بأي حال أن تحل المحل الأول الذي